القيمة ومقاصد اللّه(*)

ألفرد نورث هوايتهد ■

تعني مقاصد اللّه تحقيق القيمة في العالم الدنيوي، وتفعيل مسألة الغايات الكلية تعني ملاءمة الحاضر أو وضعه في سياق القيمة في المستقبل القريب أو البعيد. إنّ القيمة هي جزءٌ لا يتجزأ من الواقع، وإنّ كونك فرداً، فهذا يعني أن تلك مصالح خاصة. والمصالح الخاصة هذه هي إحساسٌ بالقيمة الفردية، وهي في جانبٍ منها إحساسٌ عاطفي؛ أما قيمة الأشياء الأخرى ـ خارج الذات ـ فإنها متفرعةٌ على الأصل، إنها عناصر تضيف أموراً أو أشياء على الحاجات الأساسية. والمصالح الذاتية هذه هي عبارةٌ عن الاهتمام بما يعني الوجود الذاتي أو الفردي في هذه الحقبة أو البرهة من الزمان. ويُعدّ ذلك ذروة المتعة بالتحقُّق.

* متابعة لترجمة الفصل الثالث من كتاب ألفرد نورث هوايتهد: كيف يتكون الدين. وقد نُشرت الأجزاء السابقة في **التفاهم** عدد 39، 2012، ص 423 - 436، والتفاهم عدد 40، ص 269 - 283، **والتفاهم** عدد 41، 2013، ص 269 - 283، **والتفاهم** عدد 44، ص 375 - 384.

■ **فيلسوف إنجليزي، وعالم رياضيات.**

بَيْدَ أنّ الواقع هو المتعة، وهذا الاستمتاع هو اختبارٌ أو تجربةٌ قيمة. ذلك أنّ الحد الزماني هو عبارةٌ عن كونٍ أصغر، يضم في ثناياه الكون الأكبر. وهذا التوحيد للكون ـ والذي تتلاقى عناصره المختلفة ذات الوجوه المتعددة ـ يشكّل ذَرّةً واحدةً في العالم الحقيقي.

إنّ هذا الحدث الواقعي الأساسي يمتلك طبيعة كونه فعلاً للقدرات الإدراكية. لكن لنتحدثْ عن الوقائع غير العقلية، وحينها تصبح القدرات الإدراكية عمياء؛ ذلك أنه لا يمتلك وعياً شفّافاً بل إنه ليس أكثر من القيمة الذاتية للإدراك الكوني الأصغر. فالقيمة الذاتية هي الواقعة الموحَّدة في الواقع، وينمُّ عن ذلك ظهورها. وعندما يحصل ذلك نسميه إدراكاً أو فهماً. ويكون ذلك عندما نحلّلها في علائقها بكل جزءٍ من أجزائها، والتي تشكّل بمجموعها هذا الشيء الظاهر. إنّ كل وجودٍ فردي حقيقي هو عبارةٌ عن تنظيمٍ لكل الكون الحقيقي والمتصوَّر، ومن خلاله تتعلَّلُ القيمة الذاتية، التي هي عبارةٌ عن الذات الفردية نفسِها.

إنّ كل حدثٍ زمانيٍّ إذاً يمتلك جانبين اثنين؛ فهو من جانبٍ أول عبارة عن حالةٍ من الخلْق والإبداع، من أجل وضْع الكون في سياقٍ واحد. وهذا الجانب من الحدث أو هذا الوجه من وجهيْه هو عبارةٌ عن العلة الذاتية، أو أنه هو إبداعه الذاتي. وهنا ندرك الخَلْق باعتباره إقلاباً لتحليلنا؛ ذلك أنه خلال وصفنا نَدَعُ العناصر منفصلة، أما في عملية الخَلْق فإننا نضمُّ العناصر كلَّها معاً.

ومن جهةٍ ثانية؛ فإنّ الحدث هو المخلوق، وهذا المخلوق هو الواقعة الظاهرة، وهذه الواقعة هي القيمة الذاتية للخلْق الفاعل؛ لكنهما في الحقيقة ليسا وجودين فرديين حقيقيين؛ الخَلْق والمخلوق. إنما هما وجودٌ فرديٌّ، يعني أنهما المخلوقُ ذاتُه.

إنّ وصف الوجوه المتعددة ـ التي من خلالها تسري الأحداث الحقيقية المختلفة في الطبيعة ـ هو في الوقت ذاته وصفٌ للعلاقات المتعددة في العالم الفيزيقي والعالم الروحي؛ ذلك أنّ الحدث العقلي يتفرع أو يتولَّد من

نظيره الفيزيقي، وهو في الوقت نفسِه يمتلك خاصية القدرات الإدراكية، التي تصبُّ في الإحساس بالقيمة؛ لكنه في الأساس قدرةٌ إدراكيةٌ شفافة.

واستناداً إلى الحدث الفيزيقي هناك طريقتان للتجاوز الخلّاق؛ الأولى تؤدي إلى حدثٍ فيزيقي آخر، أما الأُخرى فتؤدي إلى الحدث الانعكاسي المتفرع. إنّ السبيل الفيزيقي يدفع باتجاه أحداث فيزيقية على أساس أنها كوائن زمانية متوالية في حياة الجسم. أما السبل الأُخرى فإنها تربط الحياة الجسدية بالحياة العقلية أو الروحية. إنّ الحدث العقلي هو واقع أساسي في العالم الروحي، تماماً مثل الحديث الفيزيقي للإدراك الأعمى، وهو واقعةٌ أساسيةٌ في العالم الفيزيقي.

إنّ وصف الوجوه المتعددة ـ التي من خلالها تسري الأحداث الحقيقية المختلفة في الطبيعة ـ هو في الوقت ذاته وصفٌ للعلاقات المتعددة في العالم الفيزيقي والعالم الروحي.

ليس هناك شيء اسمه القيمة المجرَّدة؛ بل هناك دائماً قيمةٌ محدَّدة، والتي تشكِّل وحدة الإحساس، والناجمة عن تجمع العوامل المحدَّدة واقعياً. وهذه الإحساسات التقديرية المحدَّدة والمختلفة ـ رغم اختلافها ـ قابلة للمقارنة، وأساس هذه القابلية للمقارنة هو ما ندعوه هنا «القيمة». إنّ هذه المقارنة ترتّب الأحداث المختلفة بحسب تعلقها بعمق القيمة (نظراً واعتباراً)، وعندما يكون العمق ضئيلاً أو صفراً؛ فإنّ هذا يعني انهيار الواقع. كلُّ المقادير العميقة هي فقط إسهامٌ لعنصرٍ في التشكيل المؤدي إلى القيمة العميقة.

ولذا فإنّ الأحداث المختلفة تسمح بالمقارنة استناداً إلى عمقها النسبي في الاقتراب من الواقع؛ ذلك أنّ الأحداث يتباعدُ أحدُها عن الآخر من خلال تقديرات الواقع. وهكذا فإنّ المقاصد النهائية لله ﷻ من خلال تحقُّق القيم بمعنىً ما تصبح غاياتٍ خلّاقة؛ ذلك أنه من دون الله ﷻ لا تتمكن العناصر الشكلانية من القيام بوظائفها؛ فلن تكون هناك مخلوقات من دون انتظام، أو يتحول الأمر إلى فوضى وارتباك؛ إن لم يجر التحييد من جانب المشاعر. إنّ «الإحساس» هنا يصبح مقارناً للواقع، أو أنه يُستعملُ كذلك.

إنّ النظام هو عّلةُ هذا العالم؛ وليس صحيحاً أنه يمكن أن يكونَ هناك عالمٌ واقعي، يشــكّل مصادفةً نظاماً للطبيعة. هناك عالم حقيقي، لأنّ هناك نظاماً للطبيعة، وما لــم يكن النظام موجوداً فلن يكون العالم موجوداً، ولأنّ العالم موجود فنحن على يقين أنّ النظام موجود. إنّ انتظام الوحدات الفردية هو عنصر أساس في الموقف الميتافيزيقي، الذي يعرضُ العالم الحقيقي.

إنّ هذا المسار الفكري يوسّع من برهانية كانط Kant؛ فقد رأى ضرورة الوجود الإلهي في النظــام الأخلاقي لكنْ مع الميتافيزيقا فإنه أبعد البرهان عن الكون. والمقولة الميتافيزيقية المطوَّرة هنا تجد أصول العالم حقيقةً في الخبرة الأخلاقية، وليس ـ كما عند كانط ـ في الخبرة الإدراكية المباشــرة. ولذا فإنّ كل نظامٍ هو نظامٌ أخلاقي؛ والنظام الأخلاقي يتكون فقط من وجوهٍ محدَّدةٍ لذاك النظام. إنّ العالم الحقيقي هو نتيجة للنظام الأخلاقي، والنظام الأخلاقي هو أيضاً ناجم عن الحضور الإلهي.

الجسد والروح:

أسَّس ديكارت فلسفته على رســمٍ ميتافيزيقي مختلف للعالم الواقعي؛ لقد انطلق من العقول المفكِّرة ومن الأجســام الممتدّة، والتي تتكون من المواد العضويــة وغير العضوية، واليوم فإنّ أحــداً لا ينكر تقريباً وجود أجسامٍ وعقول؛ بَيْدَ أنّ التساؤلات ترد عن العلاقات بين الأجسام والعقول في نظام الأشــياء. ويدّعي ديكارت أنها جميعاً جواهــر فردية أو مفردة، بحيث تكون كل مادةٍ جوهراً، وكلّ عقل جوهراً أيضاً. وقد سأل أيضاً ماذا يعني بالجوهر، وأجاب:

«نعني بالجوهر الشيء الذي يقوم بنفسه، ولا يحتاج في وجوده إلى غيره. والجوهر بهذا المعنى ـ أي الذي يتفرد بذاته ـ هو الله. أما الأشياء الأُخرى؛ فإنها تحتاج إلى الله في وجودها. وعلى العكس من ذلك؛ فإنّ الجوهر المادي والعقل أو الجوهــر المفكّر، كلاهما مخلــوق؛ وهذا لأنها أشــياء تحتاج في وجودهــا إلى الله الخالــق... وهكذا فإننــا عندما نتحدث عــن الصفات أو

ندركها، نصل إلى الاستنتاج أنّ الشيء الحاضر أو الجوهر هو الذي تتعلق به (الصفات)، ويصبح ضرورياً».

إنّ هذه العبارات هي مجمل الشروط التي قام عليها التفكير العلمي في القرون الأخيرة. إنَّ العالم المتكوِّن من عناصر مادية تتعلّق به سِمات أو صفات. وفي تصور ديكارت هذا هناك صعوباتٌ لا يمكن تجاوُزُها، والتي تؤدّي إلى استسهالات، ومن ضمنها المقولة العامة عن المادة بخصائصها أو سِماتها (أعراضها؟). ديكارت يفترض ثلاثة أنواعٍ من الجواهر: اللّه، والمادة، والعقول. أما برهان ديكارت على وجود اللّه فلا تأخذ به غير قلةٍ قليلةٍ من الفلاسفة غير الدينيين، واللاهوتيين. ولو أخذنا بمنطلقات ديكارت؛ فلا أدري كيف يمكن أن نتعرف على ما يعدّهُ برهاناً على الوجود الإلهي.

أسَّس ديكارت فلسفته على رسمٍ ميتافيزيقي مختلف للعالم الواقعي؛ لقد انطلق من العقول المفكِّرة ومن الأجسام الممتدّة، والتي تتكون من المواد العضوية وغير العضوية.

إنّ تبسيطات ديكارت التي سبق ذكرها عندما نأخذها بالاهتمام؛ تعني إسقاط شكلين من أشكال الجواهر. وعلى سبيل المثال يمكن إسقاطُ مقولة الإله، والإبقاء على المادة والعقل، أو إسقاط مقولة الإله والعقل والإبقاء على المادة، بحسب ما ذهب إليه هوبز. أو التنازل عن المادة، والاعتراف باللّه والعقل؛ كما ذهب لذلك بركلي. أو إسقاط العقل والمادة، ويبقى اللّه وحده، وفي هذه الحالة يصبح العالم الزماني مظهراً أو صفةً للّه ﷻ.

إنما المهم في كل هذه الفلسفات أنها تشترك أو تفترض وجود الجواهر المفردة، والجواهر واحدة في هذه الحالة أو متعددة، و«التي تنوجد ولا تحتاج في وجودها إلى أشياء أُخرى». وهذه الفرضية أو المقدمات بالذات ترفضها المقولة الأفلاطونية التي عرفتها في المحاضرة. فليس هناك وجودٌ متفردٌ، بما في ذلك التصور الأُلوهي «الذي لا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر». فبحسب الفرضية التي أطرحُها في محاضرتي؛ فإنّ كل ذاتٍ أو إنية هي

في أصلها اجتماعية؛ أي أنها تحتاج إلى المجتمع لكي تستطيع الوجود؛ ذلك أنّ المجتمع هو لكلّ وجودٍ حقيقي أو مثالي يشكّل الكون الشامل، والذي يتضمن أشكاله النموذجية.

بَيْدَ أنّ ديكارت يُحسبُ له إنجازٌ كبير، وهو ذكْرهُ لوقائع تحتاج إليها كل فلسفةٍ في بنائها أو نظامها. هناك أجزاء مادية، وهناك عقول. وكلٌّ من المادة والعقل يجب أن يكونا ضمن النظام الميتافيزيقي.

والآن؛ فإنّ كل وجودٍ فردي حقيقي ـ بحسب مقولة هذه المحاضرة ـ هو في حدّ ذاته حدثٌ محدودٌ من فعل القوة الإدراكية، والمادة والعقل ـ اللذان من خلال هذا الطريق يحققان وجودهما ـ يجب أن يستمدا فرديتهما من الوجه الذي تحققا فيه. فطبيعة كل مادةٍ جزئية، يجب مع كل حدثٍ بهذه الطريقة أن تمتلك شيئاً من العام والمشترك. كل مادةٍ جزئية وكل عقل تشكّل جماعةً فرعية، وبهذا المعنى يكونان مقارنين أو موازيين للعالم الحقيقي؛ لكنّ كلَّ حَدَث ـ هو في خصيصته باعتباره مخلوقاً مكتملاً ـ ذو قيمةٍ من وجهٍ حقيقي وخاص. فكل عقلٍ إذاً يمثّل بُعداً أو طريقاً ـ هو في تحققه من خلال الأحداث والوقائع ضمن جماعةٍ معينة ـ يمثّل في الوقت نفسِه شكلاً من أشكال القيمة. وكذلك الأمر مع كلّ مادةٍ جزئية ـ أو إلكترون ـ تمتلك طريقاً للتحقق، والأحداث المختلفة في الجماعة تصنع القيمة التي تحيط بتلك المادة. وعلى هذا الطريق ـ وسواءٌ أكان مادياً أو تأملياً ـ فإنّ المحيط أو السياق يحدد ـ ولو بشكلٍ جزئي ـ الأحداث الحاصلة؛ بَيْدَ أنّ العامَّ أو المشترك الذي تتقاسمه الأحداث ـ ولكي يصطنع طريقاً للتأمل العقلي أو للمادة ـ يجب أن يتفرع على الشروط والعناصر التي حددت أو أثرت في ذلك الوجه أو الطريق. والمحيط يمكن أن يشجّع هذا الموروث أو أن يشكّل عقبةً دونه؛ لكنّ هذا التأثير ينبغي أن يكون خافياً أو يمارس نفوذه بأشكالٍ غير ظاهرة. بحيث إنه وفي الواقع يؤدي إلى إعطاء العام والمشترك خلال كل عملية التحقق، وفي حالات الناس والحيوانات؛ فإنّ هناك طرائق للعقل والتعقل وأُخرى للمادة، والتي تقع في أشدّ أشكال الانتظام؛ وسنتحدث عن ذلك مباشرةً. وفي كلّ مادةٍ غير عضوية؛ فإنّ كل طريقٍ تأملي أو تعقلي يصبح غير ذي قيمة.

إنّ الإيمــان بالوجود العقلي أو الروحي المحــض يعني في هذه النظرية الميتافيزيقية أنّ هناك طرائق للتعقل، حيث تصبح الطرق المادية بدورها غير ذات قيمة. وفي الزمن الحاضر؛ فإنّ الإيمان الأرثوذكســي يذهب إلى أنّ كل البشر بعد الموت لهم طرقٌ محدَّدة، أما بالنسبة للحيوانات؛ فإنّه لا طريق من أي نوع. وفي الحاضر أيضاً فإنه في الطريق الروحي يجري الادعاء أيضاً أنّ الوجود الروحي من خصائصــه الخلود. والفرضيةُ التي أعمل عليها هنا تقول بأنه لا دليلَ على ذلك الاعتقاد. وهذه المقولة ترى أيضاً أنّ الوجود الروحي الخالص والخالد غير متصوَّر إلى جانب اللّه، وليس هناك ما يفسر لماذا لا يمكن حسم هذه القضية من خلال اعتباراتٍ دينية أو غير دينية؛ إنما ينبغي أن تكون تلك الأسباب أو الأدلة مدعاةً للثقة. وفــي هذه المحاضرة فنحن نبحث القضية في أفقٍ أوسع، ويُهمُّ الإنسانية كلَّها. بَيْدَ أنه إذا لم تكن الأدلة والعلل قابلةً للانتظام فــي نظرية؛ فــإنّ تأثيــرات الاعتبــارات والأدلة الخاصة تبقى ضعيفة.

إنّ الإيمان بالوجود العقلي أو الروحي المحض يعني في هذه النظرية الميتافيزيقية أنّ هناك طرائق للتعقل، حيث تصبح الطرق المادية بدورها غير ذات قيمة.

العملية الخلّاقة:

إنّ هذا العرض المتعلّق باستمرار وجود المادة والعقل يعلِّل هذا الاستمرار على النحو الــذي يجعل من ذلك عملية التمثيل أو المســار للنظام. إنّ هذه الأرض تســتمر في الوجود لأنّ العملية (التفاعليــة) تخضع لنظام، وهي تُمِدُّ ذاك النظام بالقوة الخلّاقة ثانيةً بعد ثانية، ودقيقةً بعد دقيقة، وســاعةً بعد ســاعة، وعاماً بعد عام، وقرناً بعد قرن، وعصراً بعد عصر؛ من خلال حفظ هذا التشكُّل المركَّب في تمركزٍ للقدرات الإدراكية العارفة. والعملية كلها هي التي تجعل من الكون وحدةً قائمة. وهي تســتمر لأنّ الكونَ هو عملية، ووقائع ناجمة عن عناصره الذاتية. وكل واقعةٍ تتضمن الكل الشامل، بحيث لا يسقط شيء أو يُهمل، وسواء أكان صيغةً ذهنية أو واقعةً حقيقية؛ بيد أنّ هذا المسار الممتد والمتجدد يورد الوقائع على مراحل بحســب مراحــل الأهمية أو عدم

الأهمية ضمن وحدة المشـاعر، ويصـبُّ بالنظر لهذا التحدد فـي التحربة الواعية، والتي هي المسار ذاته. ولذا فإنّ كل حالةٍ من حالات الخبرة تصبح ممكنةً، بقدر ما تسمح بها الوقائع السـابقة. إذ إنّ هذه الخبرات والمعارف ضرورية للمسـار والنظام؛ لأنها هي التي تشـكّله. إنّ حفـظ هذه الخبرات ونقلها على مدى عصور في التاريـخ الحي، ومن حالةٍ إلى حالة، ومن خلال الأحداث المتتالية تستدعي؛ وجود نظامٍ صارمٍ للعالم الحقيقي.

إنّ العملية الخلّاقة (أو المسار المتتابع) يمكن التعرف عليه في وحداته؛ ذلك أنّ كل حدثٍ حقيقي يُسهمُ في ولادة أو بزوغ حدثٍ آخر، يدخل في الخبرة العامة. وليست هناك سلسلة مستقيمة ومبسَّطة من حدثٍ إلى حدث، وإنّ كان وجـودُ الخطّ العامّ ممكنـاً. فالعالم كلـه يتحرك معاً من أجـل خلقٍ جديد. والمسار يعطي عملية الخَلْق فُرصَها وحدودَها. إنّ الحدود هي نفسُها الفُرَص، وإنّ الواقـع العميق ـ يعني التجربة الحية ـ هو فـي جوهره تحدُّد. وهنا، فإنّ التحدد هو عبارةٌ عن العناصر الداخلة في الكل الشامل والتي يؤثّر بعضُها (في الخَلْق المتتابع)، بينمـا يُعزَلُ البعضُ الآخر. إنّ عمليـة الخَلْق هي في الوقتِ نفسِه عمليةُ إقصاء كما أنها عملية ضمٍّ وتضمين، و«الإقصاء» هنا يعني الحكم بعدم الأهمية في الوحدة الجمالية، كما أنّ التضمين يعني الأهمية للمسار.

إنّ ولادة الحالة الجديـدة، يعني الدخول في الجديد. ولنتأمل معاً كيف أنّ كل حالةٍ مفردةٍ (والتي أسميها: العلة) تدخل في عملية الخلْق. إنّ الجديد ـ والـذي يتفرع على الحالـة أو ينبثق عنهـا ـ هو عبارةٌ عن إطـلاع العالم الحقيقـي على مجموعـةٍ جديدةٍ من الصِيَـغ المثالية. والمـدى الزماني هو بالمعنـى الحرفي تجديد العالـم أو تجويده بالأفكار (الجديـدة). لقد قال فيلسوفٌ كبير[1]: إنّ الزمان هو عقل أو روح المكان. وفي حالات ولادة الجديد من حول مركزٍ جديدٍ للخبرة؛ فإنّ الأشـكال الجديدة تُعـدّ «نتيجة». ونحن نتأمل هنا الأهمية الخاصة للنتيجة بحسـب السـبب الخاصّ، والذي يجري توجيهه من جانب حَدَثٍ سابق. والناتج في هذه الحالة يجمع أو يصهر السبب

1 ـ Alexander, Mind, Space, and Deity. Bd.II. P. 43.

مع النتيجة، على أســاس أنّ تلك النتيجة تتحدد أهميتها بحسب ترتُّبها على العلة، وفي عملية الصهر بين الســبب الخاص والنتيجة بالنظر إلى أنّ تلك النتيجة بحسب أهميتها تتحدّد ومنزلتها من خلال الترتُّب على ما سبق.

وفي هذا الصهر بين العلة والنتيجة؛ فإنّ عملية الخَلْق تجلب معها أشياء حقيقيــة، كمــا تجلب ـ في دخولهــا إلى هذا المســار ـ بعض الأشــياء غير الحقيقية، وهــذه العملية تتضمــن الوصول إلى الحقيقة مــن خلال النتائج التأملية التي تصنــع الوحدة مع العلة الحقيقية وفي الصيغة الأرســطية فإنّ عملية الانصهار تتم بين المُنْوَجد والذي لن يوجد. وهكذا فإنّ مولد الخبرة الجمالية الجديدة يتأسس على التمسك بمبدأين جماليين، من خلال المقصد أو الغاية الخلّاقة:

إنّ العملية الخلّاقة (أو المسار المتتابع) يمكن التعرف عليه في وحداته؛ ذلك أنّ كل حدثٍ حقيقي يُسهمُ في ولادة أو بزوغ حدثٍ آخر، يدخل في الخبرة العامة.

1ـ إن النتيجــة الجديــدة ينبغــي أن تتحــدد تراتبيتُها تبعــاً لأهميتها؛ وذلــك من خلال تعريف الطبيعة بربطها بالعلة.

2ـ وإنّ النتيجة الجديدة ينبغي تحديد تراتبيتها تبعــاً لأهميتهــا؛ وذلــك بالربــط بتعريــف الطبيعــة؛ من أجل الإبقاء علــى تضادٍ معيَّنٍ نوعاً ما مع العلة.

إنّ هذين المبدأين متفرعان على مقولةٍ مؤداهــا أنّ الواقع الحقيقي هو عبارةٌ عن الخبرة الجمالية، وكلُّ الخبرة الجمالية عبارة عن مشــاعر ناجمة عن شرط تحقيق التضاد السالف الذكر. ولذا ينبغي أن تكون النتيجة متماثلةً مع العلة. وهذا من أجل حفظ التحدد؛ لكنْ في الحالات المتضادّة فإنّ التقابل ينبغي أن يســتمر لتحقيق الحيوية والنوعية. في العالم الفيزيقي يأتي مبدأ التقابل تحت شــرط الهوية في القانــون الفيزيائي؛ بحيــث إنّ التأرجح في الطبيعة الأساســية يدخل ضمن العناصر الذَرية أو الجوهرية. فالتأرجح هو عبارةٌ عن عودة التقابل من داخل الهوية المنتظمة، وإمكانية الوزن في سائر العالم الفيزيقي تستند تماماً إلى هذا المبدأ؛ فالوزن يعني تعداد التأرجُح.

إنّ فيزياء الأعراض هي عبارةٌ عن مجموعةٍ من التأرجحات، والتأرجحات الفيزيائية تعني ـ من خلال الفيزياء التجريدية ـ التعبير عن المبدأ الأساسي للخبـرة الأخلاقية. إنّ المثـال أو النموذج الإضافي للمبـدأ ذاته موجودٌ في العلاقة بين الجسـد والروح. فكلٌّ من الروح والجسد يرجع في تاريخ حياته إلى سلسـلةٍ من الأحداث الواقعية. وهكذا نجد السـياق الذي نبحث عنه في العملية الخلّاقة، التي تحدث من خلال الحدث الفيزيائي في حياة الجسـد، والتي تتضمّن الرجوع في الحياة الروحية.

إنّ الحدث الفيزيائي يسـري بكونه حقيقياً، وبكونه إسـهاماً في الحدث الروحي. إنّ إقـلاب العلة ـ والذي هو عبارةٌ عن تأملات متجددة ـ يصبح في هذه الحالة أساسـياً. إنّ الإقلاب هو تفكيكٌ للتشـكيل الـذي يبدو ظاهراً، وبذلك فإنّ المسار من الجسدية إلى الروحي والعقلي، يشكّل بُعداً من أبعاد التجـاوُز، بالمقارنة مع التحول من حدثٍ مادي إلى آخـر. وفي هذه الحالة وداخل هذا المفهوم يكون الترتيب الجديد للتقابـل. وهنا يكون التقابل بين التركيب نفسه ومضاداته؛ أي التحليل.

في حالة ولادة الحدث الروحي تكون النتيجة دخول الجديد المثالي في الواقع؛ حيث يصبح ذا قوةٍ تحليلية في مقابل ترتيب العلة. والأشكال المثالية ـ والتي تصبح تراكيب ـ هي التي تُسـمّى مفاهيـم. والمفاهيم تقابل الخبرة العمياء ذات القـوة التحليليـة. وتركيبها هذا من ضمن الحـدث الفيزيائي الأعمى بالنظر إلى درجة أهميته للمفاهيم.

إنّ تعبير «الخبرة المباشرة» يمكن أن يكون له أحد معنيين بحسب ما هو عليه في الحقيقة، وهل هو حدث فيزيائي أو حدث عقلي أو تأملي. فهو يمكن أن يكون تحقيقاً كاملاً للعلاقات الفيزيائية ضمـن الوحدة العمياء للقدرات الإدراكية. وبهذا المعنى فإنّ «الخبرة المباشرة» تعني واقعاً فيزيائياً أساسياً. إنمـا في المعنـى الثانوي والمسـتعمل؛ فـإنّ المقصود هو الوعـي بالخبرة الفيزيائيـة. إنّ هذا الوعي هو حدثٌ عقلي، وهو يملـك طبيعة تحليل الخبرة الفيزيائية من خـلال التركيب أو الصيرورة إلى مفاهيـم، تجد تحقُّقها في تضمينها في العمل العقلي.

ويبقى هذا التركيب غير كامل؛ لأنه يظلُّ متعلّقاً بحدود المفاهيم. وهذا التحديد يوصَلُ إليه من خــلال تراتُبية أهمية المفاهيم في الحدث الروحي. إنّ أكثر الحقائق اكتمالاً هي تلك المزدوجة؛ أي فيزيقية وعقلية. بَيْدَ أنه في بعض العمليات الغائية؛ فإنّ علائق الأهمية تتراوح بين القطبين: جهة افتقاد المعنى، وبالمقابل التوصل إلى غلبة أحد القطبين تماماً.

إنّ الحــدث العقلي ذا القيمة المحقَّقة هو قيمــةٌ معرفية، وهذه القيمة المعرفية ناجمة عن الطبيعة الكاملة للعمليات الخلّاقة في العالم المخلوق، وفي العمليــة الخلّاقة أو الإبداعية ليس هناك شــيءٌ لا يصــبُّ في العالم الحقيقــي. وكذلك تصبُّ النزعــةُ الإبداعية من خلال الغائية في الخلْق العقلي، والذي يكون له هدفٌ مثاليٌّ واعٍ. وكذلك اللّه ســبحانه ـ والذي هو شــرط الخلــق الإبداعي والانتظــام ـ يفيض بحسب كماله باعتباره الحكم الأخلاقي، فيصبح مخلوقاً عقلياً.

إنّ فيزياء الأعراض هي عبارةٌ عن مجموعةٍ من التأرجحات، والتأرجحات الفيزيائية تعني ـ من خلال الفيزياء التجريدية ـ التعبير عن المبدأ الأساسي للخبرة الأخلاقية.

إنّ نظام العالــم ليس مصادفةً؛ فليس هناك شــيء حقيقي من دون قــدْرٍ معيَّنٍ مــن النظام. والحقيقــة الدينيةُ هــي عبارةٌ عــن إدراك هذه الحقيقة؛ وهي أنّ نظام العالم هو عمق واقع العالم، قيمة العالم في شموليته، وفي أجزائه، جمالية العالم، حبّة الحياة، سلام الحياة، والسيطرة على الشر ـ كل ذلك يتعلق بعضه ببعض. وكل ذلك لا يمكن أن يكون مصادفة، واستناداً إلى هذه الحقيقة: أنّ الكون هو إبداعٌ مع حرياتٍ لا تنتهي، وأفق من الأشكال التي تشــير إلى إمكانياتٍ غير محدودة. بَيْدَ أنّ هذه العملية الإبداعية وهذه الأشــكال جميعاً ليســت في المقام الملائم، للتوصل إلى الحقيقة، من دون الانتظام المثالي، وهذا الانتظام هو اللّه.